

الفصل الأول

حول تدوين الحديث...

١ - الكتابة عند العرب قبل الإسلام :

تدل الدراسات اللغوية على أن العرب كانوا يعرفون الكتابة قبل الإسلام ، فكانوا يورخون أم حوادثهم على الحجارة ، وقد أثبتت الأبحاث الأثرية ذلك بأدلة قاطعة ، تعود إلى القرن الثالث الميلادي ، وأكثر الآثار التي تحمل كتابات العرب كانت في الأطراف الشمالية للجزيرة العربية ^(١) حيث كان الاتصال وثيقاً بالحضارة الفارسية والرومية ، وما يُذكر أن عدى بن زيد العبّادي (- ٣٥ ق ٥) حين نما وأيقع طرحه أبوه في الكتاب حتى حلق العربية ، ثم دخل ديوان كسرى ، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى . ^(٢) وهذا يدل على وجود بعض الكتابات في الجاهلية ، يتعلم فيها الصبيان الكتابة والشعر وأيام العرب ، وبشرف على هذه الكتابات معلمون ذوو مكانة رفيعة ، أمثال أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس ، وبشر بن عبد الملك الكوفي ، وأبي قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وعمرو بن زرارة المسمى (الكتاب) وغيرهم ^(٣) ، وقد استُخدم أبو جفينة إلى المدينة ليعلم الكتابة ^(٤) ، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان يعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول ،

(١) انظر مصادر العمر الجاهل وقيمتها التاريخية ص ٢٤ - ٣٢ وقد فصل القول في هذا .

(٢) انظر الأغاني ص ١٠١ - ١٠٢ ج ٢ .

(٣) انظر كتاب المجرى ص ٤٧٥ وقد ذكرهم تحت عنوان أشرف المعلمين .

(٤) انظر تاريخ الأمم والملوك للطبري ص ٤٢ ج ٥ .

فناء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون .^(١)
 وكان العرب يطلقون اسم (الكامل) على كل رجل يكتب ، ويحسن
 الرمي ، ويعيد السباحة^(٢) ، ولكن كثيراً من الشعراء كانوا يفخرون بحفظهم ،
 وقوة ذاكرتهم ، بل إن بعضهم كان يخفى على الناس معرفته بالكتابة ، ويخشى
 أن يكشف أحد أمره ، وإذا ما كشف أمر أحدكم قال : « اكم على فإنه عندنا
 عيب »^(٣) .

بعد هذا نستبعد أن يكون قول بعض المؤرخين : (دخل الإسلام وبمكة
 بضعة عشر رجلاً يكتب)^(٤) - صورة دقيقة لحقيقة معرفة العرب بالكتابة
 قبيل الإسلام ، ونستبعد أن يكون هذا على وجه الإحصاء والضبط ، ومع هذا
 لا يباح لنا أن نقالي في معرفة العرب للكتابة ، ونذهب مذهب من ادعى كثرة
 الكتابة عند العرب في الجاهلية ، وكثرة الكاتبين القارئين ، وقد حاول بعض
 المستشرقين وبعض الكاتبين العرب أن يدعوا رأيهم هذا بتأويل وصف الله
 تعالى للعرب (بالأميين) - في قوله عز وجل : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ
 رَسُولًا مِنْهُمْ يَقُولُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ
 كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنَفْسٍ ضَالِّينَ مُبِينِينَ »^(٥) - بأنه (لا يعني الأمة الكتابية

(١) تروح البلدان ص ٤٥٩ .

(٢) انظر طبقات ابن سعد ص ١٣٦ قسم ٢ ج ٣ وحيون الأخبار ص ١٦٨ ج ٢ وفتح

البلدان ص ٤٥٩ .

(٣) الأغانى ص ١١٦ ج ١٦ هذا ما روى عن ذي الرمة .

(٤) انظر مثلاً على هذا ما جاء في قبول الأخبار ص ٦٤ ، وانظر مهارة المؤرخين التي
 يردونها : (وكانت الكتابة في العرب قليلة) ومثال هذا في طبقات ابن سعد ص ٨٣ قسم

٧ ج ٣ و ص ٧٧ قسم ٢ ج ٣ .

(٥) الآية : ٢

ولا العلمية ، وإما يعنى الأمية الدينية ، أى أنه لم يكن لهم من قبل القرآن الكريم كتاب دىنى ، ومن هنا كانوا أميين دينياً ، ولم يكونوا مثل (أهل الكتاب) من اليهود والنصارى الذين كان لهم التوراة والإنجيل .^(١) . وحلُّ هذا اللفظ على هذا المعنى من غير قرينة لا مسوغ له ، لأنه يقتضى التفريق بين تفسير الأميين وهم العرب (جهلة الشريعة) وتفسير ما وصف به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأمية - فى قوله تعالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ »^(٢) ، بأنه النبى لا يعرف القراءة والكتابة ، ولا داعى لهذا التفريق فى المعنى ، ولا مؤيد له فلا بد من حمل اللفظ على أحد المعنيين ، والأصل فيه عدم معرفة القراءة والكتابة^(٣) ، على أن الرسول الكرم صلى الله عليه وسلم بين الأمية المعنية بما لا يرقى إليه الشك ، فقد أخرج الشيخان وأصحاب السنن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَأَنْكُتُ وَلَا نَحْسَبُ الشُّرْهَ هَكَذَا . . . »^(٤) .

(١) مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ص ٤٥ .

(٢) الأعراف : ١٥٧ .

(٣) لقد أختار الدكتور صادم الدين الأسد تفسير (الأميين) بمعنى جهلة الصرفة ، أى الأمية الدينية لا الأمية للتلمذة بالقراءة والكتابة ، ودعم رأيه هنا بشواهد فصل فيها ، انظر ذلك فى كتابه مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ص ٤٥ . وتعرض الدكتور صبحى الصالح فى كتابه « علوم الحديث ومصطلحه » لهذا الضمير الذى احتد عليه للمفسرولون فى زعمهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان كاتباً قارئاً ، وأن وصفه بالأمية - كوصف العرب بها - لا يناق معرفة القراءة والكتابة . انظر كتابه للصفحة ٢ - ٤ وهوامشها ، وقد رد عليهم رداً جليلاً .

(٤) وثمة الحديث (وهكذا يعنى مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين) انظر فتح البارى ص ٢٨-٢٩ ج ٥ وصحيح مسلم ص ٧٦١ حديث ١٥ ج ٢ وقد روى من طرق كثيرة ، قال هنا صلى الله عليه وسلم بمناسبة رؤية هلال رمضان ، ورأى جمهور المحدثين على أن للراد بالأمة العربية آنذاك ، وللراد من الأمية ، أمية القراءة والكتابة ، وقد قيل العرب أميون لأن =

٢ - الكتابة في العصر النبوي وصدر الإسلام:

مما لا شك فيه أن الكتابة انتشرت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على نطاق أوسع مما كانت عليه في الجاهلية ، فقد حث القرآن الكريم على التعلم ، وحض الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك أيضاً ، واقتضت طبيعة الرسالة أن يكثر المتعلمون ، الفارثون ، السكتيون ، فالوحي يحتاج إلى كتاب ، وأمور الدولة من مراسلات وعمود ومواثيق تحتاج إلى كتاب أيضاً ، وقد كثر الكتابيون بعد الإسلام فعلا ليسوا حاجات الدولة الجديدة ، فكان للرسول كتاب الوحي بلغ عددهم أربعين كاتباً ، وكتاب للصدقة ، وكتاب للمداينات والمعاملات ، وكتاب للرسائل يكتبون باللغات المختلفة^(١) . وإن ما ذكره المؤرخون من أسماء كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن على سبيل الحصر ، بل ذكروا من داوم على الكتابة بين يديه ، ويظهر هذا واضحاً في قول المسعودي (إما ذكرنا من أسماء كتابه صلى الله عليه وسلم من ثبت على كتابته ، واتصلت أيامه فيها ، وطالت مدته ، وسحت الرواية على ذلك من أمره دون من كتب الكتاب والسكتين والثلاثة ، إذ كان لا يستحق بذلك أن يسمى كاتباً ، ويضاف إلى جملة كتابه^(٢)) .

== الكتابة كانت فيهم قليلة ، قال تعالى « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم » ، ولا يرد على ذلك أنه كان فيهم من يكتب ويحسب لأن الكتابة كانت فيهم قليلة ونادرة . آنذاك . إيراد بالحساب هنا حساب النجوم وتبويبها ولم يكونوا يعرفون من ذلك أيضا إلا اليسير . انظر تفصيل هذا في فتح الباري ص ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ .

(١) راجع للمصباح للضيء في كتاب النبي الأبي ورسوله إلى ملوك الأرض من حرب وهم لهند بن علي بن حديد الأنصاري . مخطوط مكتبة الأوقاف بحلب ، تحت رقم (٢٧٠٦) وقد فصل القول في ذلك في ص ١٦ - ٤٠ .

(٢) التنية والأشرف ص ٢٤٦ .

وقد كثر السكاتبون بعد الهجرة عندما استقرت الدولة الإسلامية ، فكانت مساجد المدينة التسعة إلى جانب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) محط أنظار المسلمين ، يتعلمون فيها القرآن الكريم ، وتعاليم الإسلام ، والقراءة والكتابة ، وقد تبرع المسلمون الذين يعرفون الكتابة والقراءة بتعليم إخوانهم ، وأرجح أنه كان من أوائل هؤلاء الملمين سعد بن الربيع الخزرجي أحد النقباء الأثني عشر (٢) ، وبشير بن سعد بن ثعلبة (٣) ، وأبان بن سعيد بن العاص (٤) ، وغيرهم رضوان الله عليهم .

وكان إلى جانب هذه المساجد كتاتيب يتعلم فيها الصبيان الكتابة والقراءة ، إلى جانب القرآن الكريم (٥) . ولا يفوتنا أن نذكر أثر غزوة (بدر) في تعليم

- (١) انظر مساك الأبحار في ممالك الأمصار ص ١٢١ .
 (٢) المتوفى سنة ٤٣ هـ انظر طبقات ابن سعد ص ٧٧ و ١٤١ قسم ٢ ج ٣ .
 (٣) المتوفى سنة ١٢ هـ انظر طبقات ابن سعد ص ٨٣ قسم ٢ ج ٣ وتهذيب التهذيب ص ٤٦٤ ج ١ والاصابة ص ٦٣ ج ١ .
 (٤) انظر الاصابة ص ١٠ - ١١ ج ١ والمصباح المضيء ص ١٦ وقد اختلف في وفاة أبان بن سعيد ، فقبل توفى سنة ٨١٣ هـ وقبل سنة ٨١٥ هـ ، وقبل غير ذلك والصواب أنه عاش إلى خلافة عثمان ، وأنا أرجح هنا لأنه كان أحد الصحابة الذين نسخوا المصاحف مع زيد بن ثابت في عهد عثمان رضي الله عنهم جميعا ، انظر صحيح البخاري بمشاهدة السندي ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ج ٣ وكتابتنا « زيد بن ثابت الأنصاري » ص ٣٥ .
 (٥) كتب جولد تسهر مقالا عاما في دائرة معارف الأديان والأخلاق عن التعليم الأول عند المسلمين ، وقد حاول أن يثبت أن كتاب تعليم القرآن ومبادئ الدين الإسلامي قد أنشئ في عهد مبكر ، وأنه يرجع إلى صدر الإسلام ، وقد دعم رأيه بالأسانيد الآتية :
 ١ - أرسلت أم سلمة إحدى زوجات الرسول « صلى الله عليه وسلم » مرة إلى معلم كتاب تطلب منه أن يرسل لها بعض تلاميذ كتابه لياخذوها في ندف الصوف وغزله .
 ب - كان عمر بن ميمون يحفظ الصيغة التي تقي الإنسان شر العين ، وقد أستدعا إلى سعد ابن أبي وقاص الذي كان يعلّمها أولاده ، ويكتبها لهم كما يفعل للدرس مع تلاميذه .
 ج - مر « ابن عمر » و « أبو أسيد » في مناسبة ما بكتاب ، فقط إليهم
 انظر التلاميذ .

صبيان المدينة ، حينما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسرى بدر بأن يفدى كل كاتب منهم نفسه بتعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة والقراءة^(١) ، ولم يقتصر تعليم الكتابة والقراءة على الذكور فقط ، بل كانت الإناث تتعلمن هذا في بيوتهن فقد روى أبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة عن الشفاء بنت عبد الله أنها قالت : (دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا عند حفصة ، فقال لي : « ألا تعلمين هذه رُؤية النملة كما علمتها الكتابة ؟ »)^(٢)

ثم اتسع نطاق التعليم ، وانتشر في الآفاق الإسلامية ، بانتشار الصحابة رضوان الله عليهم ، وكثرت حلقات العلم ، وانتظمت في المساجد^(٣) ، وأضحت بعض الحلقات تضم نيفا وألفا من طلاب العلم^(٤) ، وكثر

== د - كان الوجود المخصص للكتابة موجودا في وقت مبكر جدا ، فقد روى عن أم الدرداء أنها كتبت على لوح من هذا النوع عبارات في الحكمة ، ليلقنها تلميذ كانت تعلمه الكتابة والقراءة . انظر تاريخ التربية الإسلامية للدكتور أحمد ضليبي طبعه بيروت سنة ١٩٥٤ ص ٢٦ . ونضيف إلى هذا - مما يؤكد وجود الكتابات - ما رواه عثمان بن عبيد الله ، قال : رأيت أبا هريرة يصفر الحية ونحن في الكتاب . انظر طبقات ابن سعد ص ٥٩ قسم ٢ ج ٤ . وقد علم زيد بن ثابت في أحد هذه الكتابات . انظر مسند الإمام أحمد ص ٢٥٩ ج ٥ . (١) انظر طبقات ابن سعد ص ١٤ قسم ١ ج ٢ .

(٢) سنن أبي داود ص ٣٣٧ ج ٢ . والثالثة هي فروع تخرج في الحب . وفي الحديث عن أنس قال : « رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرقية من اثنين والحمة والثالثة » . يضم الحاء وفتح الميم - هي الهم انظر صحيح مسلم ص ١٧٢٥ حديث ٥٨ ج ٤ .

(٣) مما يذكر عن النشاط العلمي وانتظام الحلقات أن أبا الدرداء رضي الله عنه - ٥٣٢ - كان إذا صلى النداء في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه ، فكان يعلمهم عشرة عشرة ، وعلى كل عشرة هريفا ، ويحفظ هو في الحراب برمهم يبصره ، فإذا غلط أحدهم ، رجع إلى هريهم ، وإذا غلط هريهم رجع إلى أبي الدرداء فسأله عن ذلك ، انظر غاية النهاية في طبقات القراء ص ٦٠٦ ج ١ ، وتهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ص ٦٩ ج ١ .

(٤) قال مسلم بن مشكم « قال لي أبو الدرداء : اهدد من يقرأ عندي القرآن ، فهددته بأمره ألفا وستمائة ونيفا ، وكان لكل عشرة منهم مفرى . وأبو الدرداء يكون عليهم ألفا إذا أحسهم الرجل منهم تحول إلى أبي الدرداء . » انظر غاية النهاية في طبقات القراء ص ٦٠٧ ج ١ ونحوه في تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ص ٦٩ ج ١ .

المعلمون^(١)، وانتشرت الكتابات في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، وغصت بالصبيان، وضاعت بهم حتى اضطر الضحاك بن مزاحم معلم الصبيان ومؤدبهم إلى أن يطوف على حار ليشرف على طلاب مكتبه، الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف صبي^(٢)، وكان لا يأخذ أجراً على عمله^(٣).

وقد ازدادت الحركة العلمية في أواخر القرن الأول، وظهرت الندوات التي تدل على آثار النهضة العلمية، فقد كان (عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله ابن صفوان الجمحي قد اتخذ بيتاً، فجعل فيه شطرنجات، ونردات، وقرقات^(٤)، ودفاتر فيها من كل علم، وجعل في الجدار أوتاداً، فن جاء علق ثيابه على وتد منها، ثم جر دفتره فقرأه، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم^(٥)).

فإذا رأينا - بعد ذلك - أن الحديث الشريف لم يدون تدويناً رسمياً في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، كما دون القرآن الكريم - فلا بد لنا من البحث عن السبب الذي أدى إلى عدم تدوينه في عصره صلى الله عليه وسلم.

ومن في بحثنا هذا لا يمكننا أن نستسلم لتلك الأسباب التقليدية التي اعتاد

== وقد بانث حلقات العلم في عهد عبد الملك بن مروان درجة عظيمة، فقد رأى في المسجد الحرام حلقات كثيرة لطاء ولعيد بن جبير ولبسبون بن مهران والكمول وغيرهم، فأعجب بهم، وحث أحياء قريش على المحافظة على العلم - انظر تفصيل هذا في الحديث الفاصل من ص ٣٥ - ٣٦ - (١) ذكر أبو علي أحمد بن عمر بن رسته كثيراً من المعلمين في هذا العصر، انظر: الأملق النسبية المجلد السابع صفحة ٢١٦ - ٢١٧ وقد ذكرهم تحت عنوان ستاعات الأشراف . . . وانظر كتاب الخبر حيث ذكر كثيراً من المعلمين وبينهم بالتفصيل في الصفحات: ٣٧٩ والصفحات ٤٧٥ - ٤٧٧ .

(٢) انظر معجم الأدباء طبعه مصر ص ١٦ ج ١٢، وقد تولى الضحاك بن مزاحم سنة

١٠٥٢ هـ .

(٣) انظر الأملق النسبية ص ٢١٦

(٤) النردات: جمع نرد، ما يهرف اليوم بالطاوة. وقرقات: جمع قرق وهي لعبة للصبيان.

(٥) الأغانى ص ٢٥٣ ج ٤

الكاتبون أن يعللوا بها عدم التدوين ، ولا نستطيع أن نوافقهم على ما قولوه من أن قلة التدوين في عهد صلى الله عليه وسلم ، تعود قبل كل شيء إلى ندرة وسائل الكتابة ، وقلة الكتاب ، وسوء كتابتهم^(١) - لا يمكننا أن نسلم بهذا بعد أن رأينا نيفا وثلاثين كاتباً يتولون كتابة الوحي للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وغيرهم يقولون أموره الكتابية الأخرى ، ولا يمكننا أن نمتد بقلة الكتاب ، وعدم اتقانهم لها ، وفيهم المحسنون المتقنون أمثال زيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ولو قبلنا جدلاً ما ادعوه من ندرة وسائل الكتابة وصعوبة تأمينها ، لكتب في الرد عليهم أن المسلمين دونوا القرآن الكريم ولم يجدوا في ذلك صعوبة ، فلو أرادوا أن يدونوا الحديث ماشق عليهم تحقيق تلك الوسائل ، كما لم يشق هذا على من كتب الحديث بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا بد من أسباب أخرى ، وإنا نرى تلك الأسباب من خلال الآثار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين ، وسنرى أن تدوين الحديث من مراحل منتظمة حققت حفظه ، وصانته من العبث ، وقد تضامنت الذاكرة والأقلام ، وكاننا جنباً إلى جنب في خدمة الحديث الشريف ، ونستعرض الآن تلك الآثار التي تلقى لنا بعض الضوء على حقيقة تدوين السنة .

(١) انظر تأويل مختلف الحديث ، قال : (وكان غيره - ابن عمرو بن العاص - من الصحابة أميين لا يكتب منهم الا الواحد والاثان وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجى) ص ٣٦٦ . إن هذا يناق مع ما بيناه من أن المسلمين الكتابة ، فميم ابن تيمية هذا لا يستند إلى دليل . وانظر مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٣ .

أولاً: ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتابة.

أ - ماروى من كراهة الكتابة :

١ - روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فلْيَمْسُهُ »^(١) وهذا الحديث
أصح ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الباب .

٢ - وقال أبو سعيد الخدري : (جهدنا بالنبي صلى الله عليه وسلم
أن يأذن لنا في الكتاب قأبي) وفي رواية عنه قال : (استأذنا النبي صلى الله
عليه وسلم في الكتابة فلم يأذن لنا)^(٢) .

٣ - روى عن أبي هريرة أنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه
وسلم ونحن نكتب الأحاديث ، فقال : « ما هذا الذي تكتبون ؟ » . قلنا :
أحاديث نسمعها منك . قال : « كتابٌ غير كتاب الله ؟ ! أندرون ؟ ماضل
الأمم قبلكم إلا بما اكتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى »^(٣) .

ب - ماروى من إباحة الكتابة :

١ - قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : كنت أكتب
كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أريد حفظه فنهمني تربيش ،
وقالوا تكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله

(١) صحيح مسلم بفتح النوى ص ١٢٩ ج ١٨ وجامع بيان العلم وفضله ص ٦٣ ج ١ .

(٢) الحديث الفاسل لحنه دمشق ص ٥ ج ٤ . والالاع ص ٧٨ ونحوه في تهيد العلم

ص ٣٢ - ٣٣ .

(٣) تهيد العلم ص ٣٤ .

صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في العصب والرضا ، فأسكت عن الكتاب ،
فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوماً بأصبعه إلى فيه وقال :
« اكتب قَوْلَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ » (١) .

٢ - قال أبو هريرة رضي الله عنه : (مامن أصحاب النبي صلى الله عليه
وسلم أحداً أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عيد الله بن عمرو ، فإنه كان
يكتب ولا يكتب) (٢) .

٣ - روى عن أبي هريرة أن رجلاً من الأنصار كان يشهد حديث رسول
الله صلى الله عليه وسلم فلا يحفظه ، فبسال أبا هريرة فيحدثه ، ثم شكاً قلة حفظه
إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام :
« اسْتَعِنْ عَلَى حِفْظِكَ بِمِيمِنِكَ » (٣) .

٤ - روى عن رافع بن خديج أنه قال : قلنا : يا رسول الله ، إنا نسبح
منك أشياء ، أفنكتبها ؟ قال : « اكتبوا ولا حرج » (٤) .

٥ - روى عن أنس بن مالك أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« قيدوا العلم بالكتاب » (٥) .

(١) سنن الدرراني من ١٢٥ ج ١ ونحوه في من ١٢٦ ج ١ ونحوه في تهذيب العلم طرق
كثيرة من ٢٤ - ٨٣ . وفي جامع بيان العلم من ٧١ ج ١ والامام من ٢٧ : ب .

(٢) فتح الباري من ٢١٧ ج ١ .

(٣) تهذيب العلم من ٦٥ و ٦٦ وفي الجامع لأخلاق الراوي من ٥٠ : آ وقد أخرجه
الترمذي أيضاً من طريق أبي هريرة انظر توضيح الأفسكار من ٣٥٣ ج ٢ .

(٤) تهذيب العلم من ٧٢ - ٧٣ ، والمحدث الفاضل من ٣ : ب ج ٤ مخطوطة دمشق
وانظر توضيح الأفسكار من ٣٥٣ ج ٢ . وقد ضعف « السيد رشيد رضا » صاحب المنار هذا
الحديث انظر مجلة المنار : ٧٦٣/١٠ وله رأى في الأحاديث التي تسمع بالكتابة انظر من ٧٦٥ و
من ٧٦٦ ج ١٠ من المجلة .

(٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع من ٤٤ : آ ، وتهذيب العلم من ٦٩ ، وجامع =

٦ - روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كتب كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن وأمروين حزم وغيره .^(١)

٧ - روى عن أبي هريرة أنه لما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة قام الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب في الناس ، فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه ، فقال : يا رسول الله ، اكتبوا لى ، فقال : اكتبوا له^(٢) . قال أبو عبد الرحمن (عبد الله بن أحمد) : ليس يروى في كتابة الحديث شئ أصح من هذا الحديث ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أسرم : قال : « اكتبوا لأبى شاه^(٣) » .

٨ - روى عن ابن عباس أنه قال : لما اشد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه قال : « ايتونى بكتاب اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده » قال عمر : إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله حسبتنا . فاختلفوا ، وكثر اللانط . قال : « قوموا عنى ، ولا يئبى عندى التنازع^(٤) » . إن طلب الرسول هذا واضح فى أنه أراد أن يكتب شيئاً غير القرآن ، وما كان سيكتبه

== بيان العلم ص ٧٢ ج ١ ، وقد ضعف السيد محمد رشيد رضا هذا الحديث لأن فى سنده عبد الحميد بن سليمان وقد تكلم فيه الذمى . كما ضعفه من طريق عبد الله بن المؤمل الذى قال فيه الإمام أحمد (أحاديثه مناكير) . انظر مجمع الزوائد ص ١٥٢ ج ١ . أقول : إلا أن هذا الحديث روى من طريق اسماعيل بن يحيى عن ابن أبي ذؤيب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ولا يطمئن فيه نفرده . به انظر تنقيح العلم ص ٦٩ ، والسيد رشيد رضا ضعف الحديث من طريقه الأولين فلا يطمئن برواية اسماعيل بن يحيى هذه . انظر مجلة المنار ص ٧٦٣-٧٦٦ ج ١٠ .

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله : ص ٧١ ج ١ .

(٢) مستند الإمام أحمد ص ٢٣٢ ج ١٢ وفتح البارى ص ٢١٧ ج ١ ، وجامع بيان العلم

ص ٧٠ ج ١ وتنقيح العلم ص ٨٦ .

(٣) مستند الإمام أحمد ص ٢٣٥ ج ١٧ .

(٤) فتح البارى ص ٢١٨ ج ١ وصحيح الإمام مسلم ص ١٢٥٧ و ١٢٥٩ ج ٣ روى

طبقات ابن سعد ص ٣٦ و ٣٧ ج ٢ .

هو من السنة ، وإن عدم كتابته لمرضه لا ينسخ أنه قدم به ، وكان في آخر أيام حياته عليه الصلاة والسلام ، فيفهم من هذا إباحته عليه الصلاة والسلام الكتابة في أوقات مختلفة ، ولمواضع كثيرة ، في مناسبات عدة ، خاصة وعامة .

وإذا كانت الأخبار الدالة على إباحة الكتابة منها خاص كخبر أبي شاه ، فإن منها أيضا ما هو عام لا سبيل إلى تخصيصه ، كماحه لعبد الله بن عمرو بالكتابة وللرجل الأنصاري الذي شكاه سوء حفظه . ويمكن أن نستشهد في هذا المجال بخبر أنس ورافع بن خديج وإن تكلم فيهما ، لأن طرفهما كثيرة يقوى بعضها بعضا ، وللعلماء مع هذا آراء في هذه الأخبار سأوجزها فيما يلي :

حاول العلماء أن يوفقوا بين ما ورد من نهى عن الكتابة وما ورد من إباحة لها ، وترجع آراؤهم إلى أربعة أقوال :

الأول : قال بعضهم إن حديث أبي سعيد الخدري موقوف عليه فلا يصلح للاحتجاج به . وروى هذا الرأي عن البخاري وغيره^(١) ، إلا أننا لا نسلم بهذا لأنه ثبت عند الامام مسلم ، فهو صحيح ، ويؤيد صحته وبعضه ما روينا عن أبي سعيد رضي الله عنه : « استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم أن أكتب الحديث ، فأني أن يأذن لي^(٢) » .

الثاني : أن النهى عن الكتابة إنما كان في أول الإسلام مخافة اختلاط الحديث بالقرآن ، فلما كثر عدد المسلمين ، وعرفوا القرآن معرفة رافعة للجهالة ، وميزوه من الحديث — زال هذا الخوف عنهم ، فنسخ الحكم الذي كان مترتباً

(١) انظر فتح الباري ص ٢١٨ ج ١ ، وانظر الباعث الخفي ص ١٤٨ ، وتوضيح الأمل ص ٣٥٣ ج ٢ وتدريب الراوي ص ٢٨٧ ومنهج ذوي النظر ص ١٤٢ .
(٢) تقييد العلم ص ٣٢ - ٣٣ .

عليه ، وصار الأمر إلى الجواز^(١) . وفي هذا قال الرامرمزى : (وحديث أبي سعيد « حرصنا أن يأذن لنا النبي صلى الله عليه وسلم في الكتاب فأبى » أحسب^(٢) أنه كان محفوظاً في أول الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن^(٣)) والقول بالنسخ أحد المعنيين اللذين فهمها ابن قتيبة من تلك الأخبار . فقال : (أحدهما : أن يكون من منسوخ السنة بالسنة كأنه نهى في أول الأمر أن يكتب قوله ، ثم رأى بعد لما علم أن السن تسكن وتفتت الحفظ أن تكتب وتقيد .)^(٤) ، ورأى هذا الرأي كثير من العلماء ، وذهب إليه العلامة المحقق الأستاذ أحمد محمد شاكر^(٥) فيمد أن دعم رأيه بالأخبار التي تبيح الكتابة قال : (كل هذا يدل على أن حديث أبي سعيد - « لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه » - منسوخ ، وأنه كان في أول الأمر ، حين خيف اشتغالهم عن القرآن ، وحين خيف اختلاط غير القرآن بالقرآن ، وحديث أبي شاه في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أخبار أبي هريرة - وهو متأخر الإسلام - أن عبد الله بن عمرو كان يكتب ، وأنه هو لم يكن يكتب : يدل على أن عبد الله كان يكتب بعد إسلام أبي هريرة ، ولو كان حديث أبي سعيد في النهي متأخراً عن هذه الأحاديث في الإذن والجواز لعرف ذلك عند الصحابة يقيناً صريحاً^(٦)) .

ويمكن أن نلحق هنا الرأي الذي يقول : إن النهي إنما كان عن كتابة

(١) انظر توضيح الأفكار ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٢) في الأصل (فأحسبه) وما أثبتناه أصح لفة .

(٣) الحديث الفاصل ص ٧١ : آ

(٤) نأويل مختلف الحديث ص ٣٦٥ .

(٥) انظر الباعث الحديث ص ١٤٨ .

(٦) للرجع السابق ص ١٤٩ .

الحديث مع القرآن في صحيفة واحدة ، لأنهم كانوا يسمعون تأويل الآية ، فرعا
كثبوه معه ، فمروا عن ذلك لخوف الاشتباه .^(١)

الثالث : أن النهى في حق من وثق بحفظه وخيف اتكاله على الكتابة ،
والإذن في حق من لا يوثق بحفظه كأبي شاه^(٢) .

الرابع : أن يكون النهى عاما وخص بالسماح له من كان قارئنا كاتبنا مجيدا لا
يخطئ في كتابته ، ولا يخشى عليه الناطق ، كعبد الله بن عمرو الذي أمن عليه
صلى الله عليه وسلم كل هذا ، فأذن له^(٣) . وهذا هو المعنى الآخر الذي فهمه
ابن قتيبة من تلك الأخبار .

ورأينا في هذه الأخبار هو صحة ما روى عن أبي سعيد من النهى ، وصحة
ما روى عن غيره من إباحة الكتابة ، فنحن لا نقول بوقف خبر أبي سعيد عليه .
فأرى الأول مردود ، ويمكن أن تكون جميع هذه الآراء الثلاثة صوابا ، فمنه
عليه الصلاة والسلام عن كتابة الحديث الشريف مع القرآن في صحيفة واحدة
خوف الالتباس ، وربما يكون نهيه عن كتابة الحديث على الصحف أول
الإسلام حتى لا يشغل المسلمون بالحديث عن القرآن الكريم ، وأراد أن يحفظ
المسلمون القرآن في صدورهم وعلى الألواح والصحف والمظام توكيدا لحفظه ،
وترك الحديث للممارسة العملية ، لأنهم كانوا يطبقونه : يرون الرسول فيقلدونه ،
ويسمعون منه فيتبعونه ، وإلى جانب هذا سمح لمن لا يختلط عليه القرآن بالسنة
أن يدون السنة كعبد الله بن عمرو ، وأباح لمن يصعب عليه الحفظ أن يستعين
بيده حتى إذا حفظ المسلمون قرآنهم وميزوه عن الحديث جاء نسخ النهى بالإباحة

(١) انظر فتح النهى من ١٨ - ٣ وانظر توضيح الأفكار من ٣٥٤ - ٣٥٤ .

(٢) انظر فتح النهى من ١٨ - ٣ ، وتوضيح الأفكار من ٣٥٤ - ٣٥٤ .

(٣) انظر تأويل مختلف الحديث من ٣٦٥ - ٣٦٦ .

عامة ، وإن وجود علة من علة النهى السابقة لا ينفى وجود غيرها ولا يتعارض معه ، كما أن وجود علة النهى لا ينفى تخصيص هذا النهى بالسماح لبعض من لا تتحقق فيهم هذه العلة . فالنهي لم يكن عاما ، والإباحة لم تكن عامة في أول الإسلام ، فحينما تحققت علة النهى منعت الكتابة ، وحينما زالت أبيحت الكتابة .

وأرى في حديث أبي شاه وفي حديث ابن عباس : « ايتوني بكتاب . . . » إذنا عاما ، وإباحة مطقة للكتابة ، وعلى هذا لا تعارض بين جميع تلك الروايات فقد سهل التوفيق بينها وتبين وجه الصواب . وانتهى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإباحة الكتابة ، وسرى فيما بعد بعض ما دون في عهده صلى الله عليه وسلم .

• • •

ثانيا - كتابة الحديث في عصر الصحابة

مع ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من إباحة للكتابة ، ومع ما كتب في عهده من الأحاديث على يدي من سمح لهم بالكتابة - نرى الصحابة يحججون عن الكتابة ، ولا يقدمون عليها في عهد الخلافة الراشدة ، حرصاً منهم على سلامة القرآن الكريم والسنة الشريفة ، فنجد بينهم رضوان الله عليهم من كره كتابة السنة ، ومن أباحها ، ثم ما لبث الأمر أن كثرت المجيزون للكتابة ، بل روى عن بعض من كره الكتابة أولاً لإباحته لها آخرها ، وذلك حين زالت علة الكراهة .

روى الحاكم بسنده عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : جمع أبي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ^(١) خمسمائة حديث ، فبات

(١) في الأصل (كانت) وما أبتناه أصح لتسليم العبارة .